نظرة في علم البيان

على جوانب الاحكام البيانية ثغرتان يجب ردمهما
ارجاع قوالب الكلام البليغ الى اجناس قليلة

لادوار مرقص
من اعضاء المجمع العلمي العربي

كل من مارس علم البيان العربي بفنونه الثلاثة المعاني والبيان والبديع وتأمل مليًّا احكام هذه الفنون في كتبها القديمة والحديثة راقهُ ما هناك من دقة وحسن تبويب وتفصيل وأدهشهُ ما يقف عليهِ من النقل والشواهد النفيسة التي تعد بالألوف وأكبر همة أولئك الأسلاف الكرام من علمائنا وما أبدوه من فطنة عاصمة وخبرة واسعة

ان علماءنا القدماء في آداب لساننا العربي أدوا في هذا السبيل الجميل ما كان مأمولاً منهم ومنتظراً . بل زادونا في الفرعيات أشياء طيبة جاوزت حد ما أملنا وانتظرناه . وليس معنى ذلك انهم بلغوا الكمال في ما توخوه فالكمال لكل علم وفن وصناعة لا يرجى بلوغه او مجاورته عن يد فئة واحدة من العلماء لعصر أو عصرين بل يتم ذلك رويداً رويداً على أحقاب متطاولة. ومن ثم لم يكن بدٌّ من وجود مواضع استدراك في علم البيان عندنا والذي أرمي اليه في مقالي الحاضر الاشارة الى موضعين : الموضع الاول التداخل في مباحث علم البيان . والموضع الثاني اقتصار الاحكام البيانية عندنا على جزئيات حسن الاداء والانشاء ضاربة صفحاً عن كلياته . ويضاف الى موضعي النقد هذين مطلب جديد استخرجته بطول الملاحظة والاستقراء ويقوم بارجاع القسم الاكبر من محسنات الكلام وطرق البلاغة الى ثلاثة أو كان

هذه هي المواضع التي يجدر بالمتأخرين ان ينتبهوا اليها ويعملوا بموجبها لا ان يكتفوا باجتراء قرائح من سبقوهم ثم يجمدوا جموداً سيئاً يخالف على خط مستقيم نشاط الحركة والدوران لما يكتنفهم من مكان وزمان وأحوال

التداخل في مباحث علم البيان

هذا التداخل أشرت اليه في كتابي «كنيل البيان والشعر» الذي طبعته سنة ١٩٣٤ حيث قلت: ان في كتب علم البيان عندنا اي فنونه المعاني والبيان والبديع تداخلاً ليس له وجه

سديد بل هو مدعاة تشويش واعنات للذهن ولعلّ علماءنا ينتبهون الى معالجته فيزيلوا مواضعه او ينبهوا اليها الدارس ويجعلوه على بصيرة من امره . فمن مواقع التداخل نوع البسط والإشباع في البديع فليس الاّ من باب الاطناب في المعاني . ومثل ذلك الاحتراس والايغال والتتميم فهي من الاطناب ايضاً . وقد ذكرت في المعاني والبديع والقلب في باب مخالفة مقتضى الظاهر من ابواب المعاني وهو نفس التشبيه المقلوب في البديع . والاستعارة التهكمية في باب المجاز المرسل من فن البيان مذكورة ايضاً في باب المجاز المرسل من هذا الفن لانها هي نفسها التي قوامها تسمية الشيء باسم ضده ومذكورة في البديع باسم التهكم . ثم ان المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه هي أجناس كثيرة الفروع تستغرق فن البيان بجملته وتفصيله . وقد وفاها هذا الفن حقها من التقسيم والتمثيل فما معنى اعادتها باسمائها في فن البديع باعتبارها أنواعاً بديعية كغيرها من تلك الجزئيات مع انها أجل شأناً من ذلك بكثير فهي مصدر وأساس قسم كبير من الانواع البديعية

اقتصار الاحكام البيانية على جزئيات حسن الاداء

ان في هذا الاقتصار لتقصيراً غريباً . ولكنهُ لأول ظهوره لم يكن على شيء من الغرابة إذ كان همّ أئمة الأدب العربي مصروفاً الى اظهار الاعجاز والمعاني الدقيقة في القرآن الكريم دالين المتأدبين على ما هنالك من الجزئيات والمعاني المكتسبة في تقديم وتأخير . أو حصر واطلاق . أو ذكر وحذف . أو إطناب وايجاز . أو وصل وفصل . مع الاغراض التي يمكن تحصيلها على طريق النداء والاستفهام والامر والنهي . وقد أضافوا الى ذلك تفصيل وجوه التشبيه والاستعارة والكناية والمحسنات الناشئة عن ترتيب أو ادماج أو تورية أو مشاكلة أو طباق أو مغايرة أو مراعاة نظير الى آخر ما هو مدوّن في كتب المعاني والبيان والبديع . فاذا وقف عليها الدارس تفطن لمحاسنها وللاغراض الثانوية التي تحتها في القرآن وفي غير القرآن من كلام الفصحاء والبلغاء . هذه هي الغاية الكبرى التي قصدها أئمة علم البيان عندنا ووضعوا أساسه وقد قاموا بقسطهم ذاك خير قيام

أما وقد تكوّن شيئاً فشيئاً من مدوّناتهم النفيسة تلك علم عظيم سميناه علم البلاغة فأصبح من الواجب على المتأخرين أن يوسعوا نطاقه ويستدركوا ما فاتهُ لأجل تعميم نفعه للطلاب وايصال أثر أحكامه الى حاجات المتشبثين في كل النواحي . وانما يكون ذلك بتفريع أبواب تلك الجزئيات بالمطالب الكلية التي تشرف عليها جميعاً مع اظهار شروط ووجوه كل من تلك الكليّات لتتميز الفروق بينها فلا يلتبس بعضها ببعض . فاذا وقف الدارس عليها ثم نظر في تلك الاحكام الجزئية الدقيقة التي تناولها بلاغة كتبنا البيانية كان عدة ناضجاً

وملاحهُ ماضياً في خوض ميدان البلاغة نظماً ونثراً

ان الاحكام الكلية التي أحرص على بسطها وايضاحها في كتب البيان هي ذكر ما لكل موضوع من الكلام من أسباب الحسن وشروطه واللاحظات والارشادات العديدة كان يورد المصنف هذه الامور المجملة لما تجب مراعاته في باب المراسلات الودية . وفي باب المدح والتهاني والتعازي والاعتذار والعتاب والتنصل والتوصية ومخاطبة الرؤساء والمرؤوسين وفي تدبيج المقالات والمناظرات والمحاضرات على اختلاف أغراضها . فان ايراد الفوائد المتعلقة بكل باب من هذه الأبواب نراه متبعاً في كتب بيان الافرنج . ولا أنكر اننا نرى من ذلك شذرات متفرقة واشارات خفيفة في تضاعيف كتب الادب . ولكنهُ نصيب ضعيف لا يسد ثلمة ولا يشفي غليلاً . وانما المطلوب ايراد تلك الفوائد والارشادات منظمة تنظيماً حسناً مع ايضاح واشباع في أبواب متجاورة ثم اتباعها بما تعوّدنا أن نقف عليهِ في كتب بياننا من أحكام الحذف والذكر والتعريف والتنكير والاضمار والاظهار ونحو ذلك ومن أنواع التشبيه والاستعارة والكناية وتلك المحسنات البديعية

واما أن نكتفي بهذه الجزئيات دون تلك الكليات فيجعل مثلنا مثل رجل دخل داراً فسيحة العرصات كثيرة المخادع والدهاليز والمستشرفات وكان يريد استخدام تلك الدار وسكناها مع أفراد أسرته والتمتع والانتفاع بها متوخياً من ورائها رغد العيش وراحتهُ . فأعرض عن النظر في أقسام الدار وتخصيص كل قسم بما يليق بهِ بحيث تتميز غرف المنامة عن غرف الضيافة وتتميز هذه عن غرف الطبخ وتناول الطعام والاستحمام . أعرض عن النظر في ما ذكر وفي غيره من كيفية استخدام المسكن على أحسن الوجوه ولم يلتفت الى المواعين والاثاث التي تصلح لهذه الغرفة دون تلك . ولهذا البهو دون ذاك . أهمل الرجل هذه الكليات الجوهرية وحصر عنايتهُ واهتمامه بفحص الجيد والرديء من هذا القماش وهذه المقاعد الخشبية وهذه الأدوات النحاسية والزجاجية وتلك الصحون والقدور وما شاكل ذلك . والرأي السديد يقضي عليهِ بأن يعرف هذه التفاصيل ولا يعرض عن شيء من مقتضيات تلك العموميات الشاملة . وهكذا يجب ان يكون علم البيان وهو علم البلاغة

ارجاع طرق البلاغة الى ثلاثة أركان

فرغت من ذكر الشعرتين اللتين يجب ردمهما في كتب البيان عندنا وهما التداخل في مباحث علم البيان . واقتصار الاحكام البيانية على جزئيات حسن الاداء . وبقي عليَّ أن أورد المطلب الثالث الذي أشرت اليهِ في صدر هذا المقال

راعني وحزَّ في صدري سنين طويلة ما رأيته من كثرة الاشياء لقوالب الكلام البليغ

المنصوص عليها في علم البيان ولا سيما أسماء المحسنات المعنوية واللفظية في فن البديع . ومع اني أحد الافراد القلائل الذين حفظوا تلك الأسماء وتبينوا مسمياتها ووقفوا على تعريفاتها وشواهدها ومثلها كنت أحس من نفسي انهُ لا يزال يفوتني شيء غير يسير مما ذكر وكلما عنيت بحفظ هذا الجانب نسيت جانباً آخر يعادله أو يقاربه . هذا الذي جرى لي ولم أتهم نفسي لأجله بقصور ولا تقصير اذ علمت علم اليقين ان معظم المشتغلين باللغة العربية هم من هذا القبيل على مستواي أو دون مستواي . ولنا بذلك ملء العذر فمن الذي تسمح له همته وأوقاته معاً بأن يستوعب هذه الناحية الصغيرة من آداب لغتنا فيحفظ نحو مئتي اسم مئتين من الأنواع والأبواب مع تعريفاتها وشواهدها ومثلها وفوارق المتشابهات منها . والقسم الأكبر من هذا العناء الطويل العريض ليس تحته طائل كبير وما أشبه هذه المحفوظات بالثوب البرّي تتناول منهُ عشر أقات فلا تستخرج منها الا عشرين درهم دبس . صدقوني ان عناء هذه المحفوظات يعادل أو يجاور عناء درس واتقان علمي النبات والحيوان معاً على ما فيهما من أسماء الاجناس والأنواع والفصائل . فهل من الحق والصواب أن يضحى بهذا المبلغ من الجهد والزمان لأجل تلك الناحية الثانوية من آداب لساننا العربي . وان رضينا بهذه التضحية فأية بقية ندخرها لسائر نواحي الأدب الجوهرية كمتن اللغة وتاريخ العلماء والأدباء ومعضلات الصرف والنحو وغير ذلك

فكرت مليًّا في هذا المأزق الذي فيهِ ما فيهِ من دواعي الحسرة واعنات الذهن ثم قلت في نفسي ان القوم قضوا من الزمان قرنين أو ثلاثة قرون وهم يتنافسون في استخراج أكثر ما يمكنهم من تلك القوالب للكلام البليغ واعطاء كل قالب اسماً حتى أوصلونا الى ما نحن فيهِ . أفلا يمكننا يا ترى مع اعترافنا بفضلهم في السبق واعترافنا من بحر فوائدهم أن نجري على ما يخالف نهجهم . وبعبارة أوضح أن نخالف طريقهم وان شاركناهم وحرصنا مثلهم على الغاية المقصودة من علم البيان وهي الافادة واكتساب ملكة البلاغة . ألا يجوز أن نخالف طريقهم وذلك بأن نجمل ما فصلوه ونعمم ما خصصوه لأجل تمهيد السبيل وتقريب المنهل على الوارديـن . ألا يمكننا أن نوزع هذه الانواع أو معظمها أو أهمها شأناً وأطيبها أثراً على بضعة أجناس نسوي اليها وتنطوي تحتها . جعلت هذا الهدف نصب عيني وأعملت النظر على مهل في قوالب البلاغة فرأيت القسم الأكبر منها يمكن ارجاعه الى ثلاثة أركان هي :

الموافقة والمخالفة وحسن الترتيب

فمن الموافقة ينشأ التشبيه والاستعارة والكناية ومراعاة النظير وايهام التناسب والاشتراك والتورية والمشاكلة والتدبيج والاستخدام والجناس أو لونيه والموازنة ولزوم

ما لا يلزم والتصدير والتضمين والايهام والتوجيه وغير ذلك

وعن المخالفة ينشأ الطباق وايهام التضاد والمقابلة والمغايرة والقول بالموجب والاستدراك والاستثناء وعكس الجمل وما لا يستحيل بالانعكاس وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح والتفريق والمراجعة والجد في معرض الهزل وغيرها

وعن حسن الترتيب ينشأ الجمع والتقسيم والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتفريق والطي والنشر والمزاوجة والاطراد والتوشيع وتناسق الصفات والادماج والاستتباع وأشباهها

وهذه القوالب التي ذكرناها تستغرق من فن البيان وفن البديع ثلاثة أرباعهما على وجه التقريب . وأما فن المعاني فيدخل معها من مباحثه القوالب المنصوص عليها في باب مخالفة مقتضى الظاهر وهو آخر أبوابه . وأما سائر محتويات المعاني فمعظمها يحسب تتمة دقيقة لكثير من مباحث علم النحو فهو بمنجوة عن ميدان البيان والبديع

والمقام الحاضر لا يسمح لي بايراد الكثير من الأمثلة والشواهد على صحة ما زعمتهُ من ارجاع قوالب الكلام البليغ الى الأركان الثلاثة الموافقة والمخالفة والترتيب مما أقدمت عليه وأوردت الحجج الكافية لكل فئة من فئاته في كتابي « كفيل البيان والشعر » وانما يسمح لي بايراد الشيء اليسير من الأمثلة . واللبيب يمكنهُ بالاستقراء أن يقيس على ما ذكر ما لم يذكر

ولعلهُ من الكافي أو القريب من حد الكفاية أن نورد لكل ركن من الأركان الثلاثة التي ترجع اليها معظم القوالب أربعة أمثلة لأربعة قوالب فقط

ولنبدأ بالركن الأول وهو الموافقة موردين من الانواع أو القوالب المنتظمة في سلك التشبيه والكناية ومراعاة النظير والتورية

التشبيه ركنٌ عظيم من أركان فن البيان وحقيقته إلحاق أمر بأمر آخر لوجود علاقة بينهما نحو قولك : « كلمة الحق سيف مسلول على أهل الباطل » مشبهاً كلمة الحق بسيف مسلول لعلاقة بينهما نسميها وجه الشبه . وهذه العلاقة في العبارة هي التهديد والايلام . فكما ان السيف يهدد ويؤلم المسلول عليه تهدد كلمة الحق وتؤلم من توجه اليه أهل من الباطل . والتشبيه على اختلاف اقسامه مبني على شيء من الموافقة بين أمرين لوحدة أمور كاتفاق السيف وكلمة الحق في التهديد والايلام في المثال السابق . وما يقال في التشبيه من هذا القبيل يقال في الاستعارة وهي ايضاً ركن آخر عظيم من أركان فن البيان ولا تحسب عند التحقيق إلا تشبيهاً مختصراً أي محذوفاً منه المشبه أو المشبه به مع ايراد قرينة تبين المراد من العبارة نحو قولك :

« استضيئوا بالعلم » فأصل العبارة « العلم كالنور فاستضيئوا به »

والكناية ركن مهم أيضاً من اركان فن البيان وهي لفظ أريد به لازم معناه اي الامر الذي يستلزمه معنى اللفظ الظاهر كقولك : « فلان عريض المنكبين مفتول الذراعين مكتنز

العضلات وأنت تكني بذلك عن قوته لان هذه الصفات تستلزم قوة الجسم في صاحبها . وبديهي انهُ لا بد من موافقة بين كل أمرين يستلزم أحدهما الآخر . فالكناية لا بد ناشئة بجملتها عن الموافقة

ومراعاة النظير نوع من البديع يقوم بإيراد ألفاظ مشتركة في باب واحد او موضوع واحد . وهذا الاشتراك هو نوع من انواع الموافقة . ومن أمثلتها قول عنترة العبسي

حصاني كان دلال الغانيات نفاض غبارها وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصداعا

ولا يخفى ان الدلال وخوضه سوق الشراء والبيع امور تندمج في طائفة واحدة . والطبيب والمداواة والصداع وشكوى المصدوع تندمج في طائفة أخرى . فالموافقة ظاهرة في كل من هذين البيتين

والتورية نوع من البديع جليل القدر وحقيقته ان يذكر لفظ له معنيان قريب وبعيد فيراد البعيد منهما ويورّى ان يستر بالقريب . ومن التورية قول القائل

قالت اذا كنت ترجو وصلي وتخشى نفوري
صف ورد خدي والاّ أجور ناديت جوري

فالتورية واقعة في لفظة « جوري » التي معناها أظلمي من الجور وهو المعنى القريب . ومعناها ايضاً ورد جوري مما يعد أحسن أنواع الورد وهو المعنى البعيد المقصود . والتورية ناشئة عن هذه الموافقة اي موافقة لفظ واحد لمعنيين

***

فرغنا من التمثيل عن الركن الاول وهو الموافقة ولنذكر الآن الركن الثاني وهو المخالفة موردين اربعة انواع او اربعة قوالب تنتظم في سلكها وهي الطباق وعكس الجل وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتفريق . فالطباق او المطابقة او التضاد هو ذكر ألفاظ متضادة في معناها على سبيل التقابل كقول القائل :

اما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الامر

وارجاع هذا القالب الى حظيرة المخالفة أوضح من ان يحتاج الى ذلك

ومثل ذلك في الوضوح عكس الجل نحو قولهم : « كلام الملوك ملوك الكلام »

وتأكيد المدح بما يشبه الذم كقول صاحب هذا البحث واتياً احد الفضلاء :

لله الله من فاضل لم يكن بأوصافه الزُّهر شيءٌ يُذم
سوى انهُ كان ينهي الجليـــسَ كل أبر وأخ وابن عم

فهذا الكلام بني على المخالفة ولو في ظاهر الأمر بإيراد حكم معين ثم استثناء ناحية منهُ

وأما التفريق فمن أمثلته قول القائل :

فهمٌ الفتى الأزدي في جمع ماله وهم الفتى القيسي دفع المغارم

والمخالفة ظاهرة في الفرق بين رجلين أحدهما يجمع ماله ويدخر لنفسه وآخر يبذله في سبيل نفع الناس وتفريج همومهم

وصلنا الى الركن الثالث وهو حسن الترتيب فلنذكر من المحسنات المنطوية تحته الجمع مع التفريق والطي والنشر والمزاوجة والاستتباع . اما الجمع مع التفريق فمنهُ قول أبي تمام :

ولما دعاني البين ولبت أذرعا ولما دعاها طاوعته ولبت

فلم أرَ مثلي كان أوفى بعهدها ولا مثلها لم ترعَ عهدي وذمتي

وأما الطي والنشر ويسمى أيضاً اللف والنشر فهو نوع بديعي يقوم بذكر أشياء متوالية ثم ذكر ما يلائمها ومثاله :

همي حنيني أنبي رغبتي ولعي منهم اليهم عليهم فيهم بهم

يريد ان همه منهم وحنينه اليهم وأنينه عليهم ورغبته فيهم وولعهُ بهم . والمزاوجة ان يرتب على امر في الشرط والجزاء ما رتب على أمر آخر قبله . ومثاله :

اذا ما دعا الداعي فلجَّ بي الهوى أصاخت الى الواشي فلجَّ بها الهجر

فان حسن الترتيب ظاهر في هذه الأمثلة وهو معدها وموجبها ولا يخرج عن سلطانه الاستتباع ايضاً فهو نوع بديعي يقوم بايراد وصف شيء على صورة تستتبع وصف شيء آخر . والترتيب متأتٍّ عن هذا الاستتباع . ومثاله قول الجني :

ألا أيها المال الذي قد أباده تسلَّ فهذا فعلهُ بالكتائب

وقد دلني الاختبار الطويل على ان الأديب او المتأدب اذا خطر بباله وجعل نصب بصره وبصيرته هذه الأركان الثلاثة أو المعادن الثلاثة لمحاسن الكلام وأنيق القول الموافقة والمخالفة وحسن الترتيب أغنته عن الالتفات الى معظم تلك القوالب والانواع الكلامية التي تتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠ نوع وساعدته على تزيين كلامه وتعزيز مراميه بالأجود الأحب من تلك الأنواع ولو لم يفكر فيها بالذات ولم يعرف أسماءها وتعريفاتها فيجمد منعة خطابه لا سيما اذا كان المقام الذي يتصدى له مقام شعر منظوم أو مما يجاور الشعر في تفنيه الخيال واستثارة الشعور . ولا بأس ان سمي كلامهُ حينئذٍ كما اصطلح كثيرون شعراً منثوراً في محاضرة او خطابة بل لا بدَّ له أن يحتاج الى التأنق وجمال الاداء في عدة مواضع من مباحث العلم والسياسة والعمران والاجتماع . هذا الذي أراه وأعتقده بشأن علم البيان العربي أدرجته في جملة الزهرة موجهاً اليه أنظار حدام الأدب وأنصاره لعلهم يرون فيه أو في بعضه صواباً فيعملوا بمقتضاه . والله من وراء حسن القصد

اللاذقية — سورية